وقفة باطلال بابل

بقلم حضرة الاب ا . س . مرمرجي الدومنيكي
من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

٢

اما برج بابل ، او برج تبلبل الالسن ، الآتي ذكره في التوراة ، فلا ريب انه قد شُيّد في تلك الاصقاع ، لكن العلماء لم يتوصلوا بعد الى الاتفاق على تعيين محله بالتدقيق . ومهما يكن من الامر ، فان الناظر الى تلك الانقاض ، لا يعتم ان يجول في خاطره بان في تلك النواحي ، ان لم نقل في ذاك المحل عينه ، قد حلّ غضب الرب بابناء البشر العصاة ؛ وانّ حالة تلك الخرائب تدلنا على ما استحال اليهِ برج بابل ، والمدينة التي شرع ببنائها . ولذا فاطلال بَرْز نمرود من اهم الاطلال التي اكتشفت في بابل ؛ وقليلة هي الآثار الباقية من العالم القديم ، الحاصلة على اهبته وعظمته ، ولها في نظرنا خطورة مثل خطورته ، وذلك لما هنالك من الذكريات والتقاليد العارقة في القدم ، التي تتمثل في خاطر من يقف فوق تلك الربوة المهيبة

على ان برز نمرود ، كما ذكر ، ليس هو الا آثار مدينة برسيا وبرجها . وهذا ما جاء ، في ذا الشأن ، في رقيم مساري لنبوكدنصّر بن نبوبولصّر :

« ان هيكل انوار الارض السبعة ، المنوطة بـه اقدم ذكريات بُرسيا ، قد بناهُ ملك قديم ؛ لكنه لم يكتمل قمته . وكان الناس قد اهملوهُ ، من الايام البعيدة . وكانت الزلازل والرعود قد اتلفت اللبن ، وفسخت الآجر الذي حوله ، فصار اللبن تلولًا . فوضع الاله العظيم مردوخ في قلبي ان اجدّد بناءه . فلم اتعرّض للأسس . وفي شهر النجاة ، واليوم المبارك ، فتحتُ قناطرَ في اللبن والآجر ، ووضعتُ يدي لابني البرج ، واعليّ قمتهُ . وعمّرته ، معيدًا اياه الى حالته

التي كان عليها ، يوم شُيد للمرة الاولى . وعلَيتْ قمتـه ، كما كان في الايام البعيدة »

وقد وجد من هذه البروج في اماكن مختلفة ، من البلاد العراقية وبذلك عُرف شكلها ، ومن هيئة هذه البروج ، يمكننا ان نتصوَّر شكل برج بابل المذكور في سفر الخلق ؛ لان المحقَّق من نصّ الكتاب ان البنـاء المعهود كان برجاً ، فلا ريب انـه بني حسب الطرز الوحيد ، المعروف في تلك الديار ، لمثل هـذه الابنية ، ولا بـأس ان آتي بوصف وجيز لمثل هذه الابراج ، مستنداً بذلك ، الى اقوال علماء الآثار العراقية :

كان البرج من هذه البروج مركباً من مكعَّبات بنائيـة ، معتدلة الزوايا ، راكبة الواحدة على الاخرى . مما يجعل ان تكون الثانيـة اصغر من الاولى ، والثالثة اصغر من الثانية ، وهلم جرًّا . وحول هذه المكعَّبات سلم يُرمى بها من الطبقة الواحدة الى الطبقة الاخرى . واما عدد الطبقـات فكان مختلفاً . فان اقدم هذه البروج اي برج اور الكلـدانيين ، وبرج اوروك ، لم يكن فيها الَّا طبقتان ، او ثلاث . لكن برج بَرز نمرود ، كان له سبع طبقات ، فضـلًا عن السطح العالي الذي كان يُقام فيه الاثر . وكل طبقة كانت مختصـة بواحد من الآلهة السبعة ، اي السيارات ، ولكل منها لون خاص ، نسبةً الى الاله الموقوفة لاكرامـه . فكان لون الطبقـة السفلى اسود ؛ ولون الثانية ابيض ؛ والثالثة قرمزياً ؛ والرابعة ازرق ؛ والخامسة احمر ؛ والسادسة فضياً ؛ والسابعة ذهبياً . وكل زاوية من زوايا البرج كانت قبـالة جهة من الجهـات الاربع . والمعبد القائم فوقها ، كان بمنزلـة هيكل ، ومرصـد ، في وقت معاً . وكانت تُبنى الابراج بالآجرّ من خـارج ، وباللبن المكدَّس من داخـل ؛ وكان الآجرّ الخارجي يلحم بالقار المغلي ، المتوفر وجوده في البلاد العراقية . وكان في هيكل بابل ، المختص بعبادة الاله مردوخ ، زعيم الآلهة ، برج من هذه البروج ، شهير بطبقاته . وفي المعبد الفوقـاني ، كانت منتصبة ثلاثة تماثيل كبيرة من ذهب : الاول لمردوخ ؛ والثاني لزوجته ، بليتًا ذِيرَبانيتْ ؛ والثالث للالاهة إشتَر . ثم حيَّتان من فضة ، واسدان ، وثلاثة اكواب ، وطاولة عريضـة من ذهب .

وكان يُطلق على هـذه الابراج اسم خـاص وهو « ذيكُورَتْ او زقرتا » وهو مشتق من فعل (zakaru) الأكدي ، ويقابله في السريانية فعل (اُذكرا) ومعناه « العالي » وهو اسم ينطبق على هـذا المسمّى ، كما جاء وصفـه . على ان هذه الزقرتات او الذيكورات لم يبقَ منها ولا واحدة صحيحة كاملة البناء . الا ان صورهـا ، بهيئتها التامة ، ترى على النقوش الاشورية البابلية .

لمحة في تأريخها

بابل عريقة في القدم ارقيها الى زمن الطوفان ، وذلك ان ابناء البشر سعوا في تشييد برج بابل والمدينة في بقعة سنعار ، التي هي بابل عينها . وهناك ايضاً قد بنى نمرود الجبار مدن مملكته ، كما ذكر في سفر الخلق : « وكوش ولد نمرود ، وهو اول جبّار في الارض . كان جبار صيد امام الرب ، ولذلك يقال : كنمرود جبار صيد امام الرب . وكان اول مملكته بابل ، واورك ، وأكد ، وكلنة ، في ارض سنعار . » ومن ذلك الزمان ، لم يعد لبابل ذكر في التوراة ، الا اوان الجلاء البابلي الشهير

على ان التنقيب الفني ، والرقم المسمارية ، قد عرفتنا بامور كثيرة ، كانت مجهولة ؛ واثارت حقائق عديدة ، كانت غامضة في تاريخ بابل . فقد يرقى ورود اسمها الى بـدء الالف الرابع ق.م. فـالطور الاول طور الاخبار البابليـة المكتنّاة بالمتخيَّلة او الوهمية . والطور الثاني ، وفيه تبتدئ الاخبـار التاريخيـة الصحيحة ، اي منذ اوائل الالف الرابع ق.م. يمتد الى عهد الدولة البابليـة العظمى ، اعني الى نصف الالف الثالث ق.م. والطور الثـالث من ذلك العهد الى نصف الالف الاول ق.م. وهذا الطور يتفرّع الى اعصر اهمها :

اعصر الدول : الحمورابية العظمى ، والجنوبية الساحلية ، والكوسية ، والباشية ، والبابلية الثانية الكبرى

من قديم الإخبار عند البابليين ما يشبه ، بعض الشبه ، الاخبار الواردة في التوراة . فانهم يذكرون انه قام فيهم ، قبل الطوفان عشرة ملوك ، اولهم ألور ،

وآخرهم شمش نپشتيم او ششيت ؛ وان كل واحد منهم ، ملك عشرة دارات ، اي ٣٦,٠٠٠ سنة . لان الدار عندهم ٣,٦٠٠ سنة . وفي ايام ششيت ، حدث الطوفان ، لتفاقم آثام البشر . فظهر الاله بيل لششيت ، وامره ان يبني الفلك ، ويدفن الكتب المقدّسة ، في مدينة سپارا . فاطاع ششيت أمر بيل واعدّ السفينة وادخل فيها كل نوع من انواع الحيوانات ، ومن اصناف الطيور كلها . ثم اوعز اليه الاله شمش ان يلج الفلك ويغلق الباب ، حالما يرى وقت المساء ، واله المطر يقرّل السيول . فذات مساء هطلت الامطار مدراراً . فاسرع ششيت الى داخل الفلك هو ومن معه . وكان معهم يوزربيل الربان لقيادة المركب

اما بعد الطوفان ، واستقرار السفينة على جبل قردو ، فنقل الاله بيل ششيت الى السماء ليسكن مع الالهة هو وزوجته . وابرز بيل امره للناس بالعودة الى بابل ، واخراج الكتب المقدسة المدفونة . لكنهم عند رجوعهم الى بابل داخلهم روح الخيلاء ، فحقروا الالهة وفضلوا نفوسهم عليهم . فاقاموا في بابل برجاً شامخاً كاد يناطح السماء . مما اثار غيظ الالهة عليهم ، فامروا الرياح فعصفت ، فاسقطت برجهم وبلبلت السنتهم

واما نمرود فلم يحرم في اساطير البابليين ، من اقاصيص غريبة ؛ وهو معروف عندهم باسم « گلگميش » ، الذي تشبه حكايته غاية الشبه قصة نمرود التوراة . وقد دوّنت هذه الحكاية في القرن الثالث والعشرين ق.م. ووجد منها عدة نسخ . وهذه خلاصتها : ان گلگميش كان ملكاً على اورك وكان شهيراً بقوته الجبارية وجماله . وهو من حفدة شمش نپشتيم الذي على زمانه حدث الطوفان . وقد احب گلگميش الالهُ شمش فحباه بوضعه تحت إمرته وحشاً اسمه « حباني » ، كان يلازمه دون انفصال البتة . وحدث ان « خمبابا » ملك عيلام اغار على كلدية . فما كان من گلگميش الّا ان حمل عليه وبصحبته حباني ، فقطعا راسه . ولما عادته الالاهة اشتر ، لانكاره عليها ما رغبته منه ، خلقت سبعاً مخيفاً ، فالقى الرعب في قلوب سكان اورك . لكن گلگميش

وحباني قتلاه ، فضربته اشتر بالبرص . مما الجأه الى قصور جده ششيت طلباً للشفاء . وكانت الطريق مخطرة . وفي عبوره فيه قتل هر وحباني غرّاً ؛ لكن الشر توصل قبل موته ان يجرح حباني ، فلقي حتفه . واما كلكميش فواصل طريقه حتى بلغ الاوقيانوس ، فبنى له سفينة وركبها . وبعد اربعين يوماً ارسى عند ساحل الجزيرة السعيدة ، فرأى ششيت واقفاً في انتظاره على الساحل . فرحب به وشفاه ثم سرد عليه قصة الطوفان

على ان الاخبار البابلية الصحيحة تبدأ بملوك كيش ولجش . منهم شركينا القديم ، وابنه نارَمسين ، واورشمشا ملك اور ، وابنه ايلفي ، وبُورسين وخلفاؤه

وكان ظهور شركينا هذا ، حسبما ورد في الرقم الاثرية ، سنة ٣٧٨٠ ؛ ولم يكن بادئ الامر مالكاً الا على أكّد قاعدة الديار البابلية الشمالية . ولم يزل يتبع الفتوح بالفتوح حتى اصبح يوماً مستولياً على بابل ، وسبارا ، وكيش ، ونيبور . وتسلط ايضاً على كل مدن المنطقة الشرقية . ثم افتتح بلاد اشور ، والحثيين ، وسورية ، وفنيقية ، وبلغ مكان اي سيناء ، وبلاد العرب

ومما اشتهر به شركينا ، فضلاً عن مآثره الحربية ، بناء الهياكل والقصور . فقد شيد في أكّد ونيبور هيكلين عجيبين ، اكراماً للاله بيل . وعمّر قصراً جميلاً في بابل جُعل بعده مقبرة للملوك . وابتنى لذاته مدينة سماها : « دور شركينا » وهذا ملخص ما وُجد على تمثاله :

« انا هو شركينا الملك القوي ، ملك اكّد . كانت امي خاملة الاصل ، وابي مجهول الاسم . ولدتني امي خفية ، ووضعتني في قفة من البردي ، والقتني في النهر ؛ فدفعتني المياه الى حيث وجدني أقّي السقاء ، فترحّم عليّ وربّاني مثل ابنه ، ثم اقامني بستانياً . فنظرتْ اليّ ، وانا احترف هذه الحرفة ، إشتر الالاهة ، بعين الشفقة والمحبة . فملكت مدة اربع واربعين سنة . »

وقام خلفه ابنه نارَمسين نحو السنة ٣٧٥٠ وقد ضارع اباه في كل منقبة ومحمدة . ومن مآثره ، انه اخضع العيلاميين لسلطانه ، وفتح مدناً وبلاداً ،

منها مدينة بيراق ، وقد عاد بعد حملته على مصر ، بما وفر من الغنائم . وحارب ايضاً اهل جبل « زكرا » ، المدعو اليوم جبل اياق طاغ ، الواقع بين بلاد ايران والعراق ؛ وقد عرف ذلك من حجر منقوش عليه قصة هذه المحاربة . ومما شابه به نارَمسين اياه ، ولوعه بالبناء . فهو الذي شيَّد الهياكل في نيور ، وأكَّد ، وسيارا

وجاء بعده اورشَنشا ، ملك أور ، الواقعة على شطّ الفرات ، في المحل الذي يسمى اليوم المكَيّر ، كما سبق القول . ويُعتبر هذا الملك مؤسساً لها ، وهو الذي بنى سورها وشيَّد الزقرتا العظيمة التي قيل انها برج بابل . واقام قصراً فخماً وعلى جدرانه ترى الى اليوم صورة اورشنشا . وكذلك شيَّد ذكورات اخرى في لارسام ، واوارك ، ونيور ، وسيارا ؛ واعظمها ذكورت اورك وهي بعدُ قائمة ، وقوامها تلّ يسمكه نحو ٧٠ متراً وعلوه ٣٥ . وقد قدّر بعضهم انه لزم لبنائها ٣٠ مليون آجُرَّة . ومن خاصيات اور ، انها بقيت زمناً طويلاً ، مركزاً للتجارة ، براً وبحراً

اما بابل فلم تكن في بادئ الشأن ، عاصمة للملك ، ولا منتظمة في سلك المدن الخطيرة . الّا ان الدهر قلب لها ظهر المجنّ ، فدامت لها الدولة ؛ فبلغت ذروة الكمال والاهبة ، ونالت من الفخر ما لم ينله غيرها . فاصبحت اعظم مدن آسيَّة ، وبعدها ذكراً ؛ ولم تماثلها حاضرة او عاصمة بالعمران ، والعزة والسلطان . وجرت فيها اعمال باهرة ، وأسست فيها مقامات فخمة ، وكثرت ارزاقها ، واتسع نطاق تجارتها ، وليتسالغ ما بلغ اليه غناها وثروتها ، لُقبت بمدينة الذهب

كان ملوك بابل في القديم ، تارة مستقلين ، وتارة خاضعين لملوك مدن البلاد الاخرى ، ولاسيما لملوك أكَّد . وفي اواخر القرن الخامس والعشرين ق.م. قامت في بابل دولة بابلية . واول ملوكها سُومُوأبيم (٢٤١٦ ــ ٢٣٨٥) وحكم ٣١ سنة . وبعده ، سُومُولَائلو (٢٣٨٥ــ٢٣٧٠) وملك ١٥ سنة . ثم ابنه زَابُوم ، ثم أمليين ، ثم سِنمُوبَليت . وفترة حكمهم من ٢٣٧٠ الى

٢٢٨٧ . وفي ذلك الزمان ، كان كُوتَرْناحُنتَا ملك عيلام ، قد مدّ سلطته على بابل . واما بلاده ، عيلام ، فكانت ازاء بابل ، وتمتدّ الى مسادي ؛ وقاعدتها مدينة شُوشَن . فاغار هذا الملك على بابل ونهب تماثيل الالهة ، ووضعها في هيكل شوشن . وخلّف بعده كدرلاعمار ، وهو المذكور في التوراة انه حمل على بلاد كنعان

اما سِنموبلِيت ، فكان قد مات سنة ٢٢٨٧ ، وجلس مكانه حَمُورَبّي ابنه . وكان هذا من اهل الحزم والعزم ، فحدثته نفسه ان يستولي على بلاد الجنوب الخاضعة للعيلاميين . فحارب ريمسين الملك العيلامي ، وانتصر عليه وتتبّعه . ففتح جميع الحصون وخربها ؛ فدانت جميع الديار لحكمه

وبنى على طول النهر حصوناً كثيرة . فاصبحت مملكته واسعة الارجاء ، وباغت اعظم مبلغ من الثروة والترف ، وراجت فيها سوق المعارف والعلوم والفنون والصنائع على اختلافها

ولم يجتزئ حمورّبي بتوطيد ملكه ، بل بعد ان استتبّ السلام داخل بلاده ، لم يكن منه الّا ان وجّه نظره الثاقب الى ما فيه مصلحة رعاياه . واذ كان عالماً بان العدل اساس الملك ، فكّر في امر التشريع ، فعمد الى قوانين سلفائه ، فجمع شتاتها ، مضيفاً اليها ما كان يراه ملائماً لزمانه ، وحصرها كلها في كتاب واحد ، عرف بدستور حمورّبي . ولسعد الطالع لم تعبث يد الضياع بهذا الكنز الادبي ، بل وصل الينا بكماله . وهو يشتمل على ٢٨٢ فصلاً ، في الحق المدني . فمنه ما يتوط بسلك القضاة ، وسائر الموظفين ؛ وما يرجع الى الاراضي ، من زرع ، وسقي ، ومرعى المواشي وغيرها ، وتجاوز الحقوق الشخصية والملكية ، والتعدّي حتى على الحيوانات . وهناك ما يتعلق بالتجارة ، والملاحة ، او ما يختصّ بالامور البيتية ، كالزواج ، وحقوق المرأة ، والرجل ، والاولاد ، وتوزيع الميراث ، وحالة العبيد والجواري . ومن تلك القوانين ما يبحث عن مهنة الاطباء والمحامين ، والبنّائين ، وسائر ارباب الحرف المعروفة في ذلك الزمان ؛ الى آخر ما هناك من الامور المتصفة بالحكمة والعدالة ، وقد

اكتشفت هذه الشريعة ، في مدينة سُوسَن (وهي اليوم : السوس) عاصمة العيلاميين . وكان ناشرها واول مترجم لها ، شيخ اهل الاشوريات وامامهم ، الاب شيل الدومنيكي

فضلاً عما اتصف به حمورّبي من حسن الادارة والسياسة ، فقد كان مغرماً ببناء الهياكل ، وحفر الانهر واصلاحها . فلم يترك مدينة من مدن مملكته الّا خلّف له فيها ذكرًا خالـدًا . وحفر نهرًا كبيرًا سمّي باسمه ؛ ظفر اهـل التنقيب بآجرّة من جدرانه ، كتب عليها ما هذا مآله :

«انا حمورّبي القدير ملك البابليين ، المسيطر على الاقطار الاربعة ، القاهر اعداء مردوخ ، قد حفرت نهر حمورّبي ، الذي هو سعادة البابليين . واوصلته الى ربوع شمر وأكّد ، فارتوت به الفلوات القاحلة . فكان لها بمنزلة منهل لا ينضب ، مما اوجد الخصب في المدن والقرى . وحوّلتُ القفر الى مروج رائعة وناديت الناس قائلاً : ألا اقيموا في بحبوحة الرغد . لان ارضكم هذه قد اصبحت موطن السعادة والهناء . انا حمورّبي المهام ، خليل الالهة العظيمة . وبقوة مردوخ قد بنيت عند راس نهر حمورّبي قصرًا عاليًا شامخاً شموخ الجبال ؛ ودعوته : دار سنموبليت الذي اولدني ، وذلك تخليدًا لذكر ابي . »

وقد نجح حمورّبي غاية النجـاح ، في تدبير مملكته ، واستمرّ قابضاً على زمام الحكم ٥٥ سنـة ، وكانت وفاته سنـة ٢٢٣٢ . وخلفه على العرش ، شمشوإيلونا ، وأبيشو ، وأميذُوكًا ، ثم شمشوديتـانا . ودام ملك جميعهم معاً ، من سنة ٢٢٣٢ الى ٢٠٨٣ . واقتدى سائرهم بحمورّبي ، بتشييـد الهياكل او ترميمها ، وحفر الانهر او تنظيفها ، كما تدلّ على ذلك آثارهم . وقد امتدت سلطتهم ، ورسخت قدمهم في سورية ، حتى طمحوا الى الاستيلاء على مصر عينها

هـذا ولم يكتفِ هولاء الملوك ، وفي مقـدمتهم حمورّبي الكبير ، بامور الحرب ، والفتوح ، والسيطرة على الممالك ، او البناء بتشييد القصور والهياكل ، وتقديم بلادهم في باب الزراعة والتجارة والاقتصاد ، بل انهم فضلاً عن هـذا

كله قد كانوا من اكبر انصار العلوم والفنون والصنائع الجميلة . حتى بلغت البلاد في عصرهم الى اوج الكمال ، كما شهد بذلك المحققون من العلماء . قال بعضهم : ان انسجة الصوف والكتان ، التي كانت تشتغلها بابل ، حازت اعتبارًا بلغ الدرجة الاولى من الخطورة . وكذا القول عن صنع الاقبية والطنافس ، فقد برّز البابليون في اتقان صنعها ، فلم يسبقهم فيه احد ، وكانت المعامل حينئذٍ في بابل وفي سائر مدن المملكة ونواحيها . ومما يجدر بالاعجاب ان النساء كنّ المتفرّغات لمثل تلك الاعمال الجليلة ، وقد تفرّدت البابليات بنسج الثياب الملكية ، والنمارق ذات الصور الفاتنة الالباب . وكان ايضاً سلفاؤنا البابليون يحسنون التطريز بالقصب ، وبالتصاوير البهجة ، والالوان الطبيعية ، ويُتقنون تنزيل الذهب والفضة على الفولاذ ، والترصيع ، والشغل بالميناء ، والحفر على الحجر . وكان النسلة والعمال ماهرين في صنع الطاباق والاوعية الفخارية . وكل هذه الصنائع والفنون قد بقي لها آثار كثيرة عند صناع بغداد وما حولها من المدن .

وقد اشتهر في زمن الدولة الحمورابية رجال كثيرون في الطب، والصيدلة ، ودرس طبائع المعادن والعقاقير . اما العلم الذي اختص به البابليون اكثر من غيره ، فهو علم الفلك . فانهم كانوا يرصدون الكواكب ، وسير النجوم ، فاستنتجوا نتائج مفيدة للعالم ، وهم الذين قسموا الزمان الى سنين وشهور وساعات . واخترعوا الساعة المائية ، والساعة الشمسية ، ووقفوا على حوادث الكسوف والخسوف . وناهيك ان البابليين كانوا يستعملون هذه الكتابة المسمارية ، التي دون تعلّمها خرط القتاد ، وكانت قد فقدت ممارستها منذ انقراض بابل . وقد توصل العلماء في عصرنا الى حلّ الغازها ، وكشف معمّاها ، فافادوا العلم بما اكتشفوه بواسطتها من الآثار التاريخية والادبية والدينيّة .

هذا وبموت شمشوديتانا ، انقرضت سلالة حمورابي . . . (للبحث صلة)